**المحاضرة 14ـ 15 0**

**سمات الدرس النحوي في مصر والشام وعند متأخري النحويين :**

**عرفنا من خلال المحاضرات السابقة أن لتطور الفكر النحوي دراسة معمقة تفيد أن هذا الدرس شهد ظهور مدرستين فقط ، هما مدرسة الكوفة ومدرسة البصرة ,وكل الذي جاء بعدهما مما سمَّاه الباحثون المعاصرون مدارس نحوية ليس سوى درس نحوي يأخذ أصوله وفروعه من المدرستين وإن عمَّق الفروع ووسَّعها 0**

**وحينما نتأمل الدرس النحوي في مصر والشام سنجد أنه لا يخرج عن هذا الحكم, والجديد فيه ظهور المنظومات النحوية , والباعث عليها فساد الألسن واستشراؤه والحاجة إلى تعليم النحو وتقريبه وتيسيره للدارسين فقد بَعُد عهد الناس بعصر الفصاحة 0**

**ولما كان الشعر أيسر على الحفظ من النثر اتجه علماء النحو في عصوره المتأخرة وفي مختلف الأقاليم إلى نظم القواعد النحوية والصرفية وحتى العروضية والمعجمية . واتسمت هذه المنظومات بالشمول والسعة والإفادة من أراء البصريين والكوفيين والبحث عن الرأي الميسر عند علماء المدرستين والتنويه بالخلاف النحوي بينهما . ومن أهم تلك المنظومات ألفية ابن معط وألفية ابن مالك في النحو . وتتسم هاتان المنظومتان باستيعابهما للهجات العربية والقراءات القرآنية ، وكذلك الاستشهاد في الحديث النبوي الشريف فضلاً عن شواهد العربية الأخرى التي ربما جاوزوا فيها عصر الاحتجاج . ولكن منهم من بالغ في ذلك فوضع حاشية على الشرح , وجاء آخر ليضع هامشاً على الحاشية , والحواشي والهوامش اتسمت باحتدام الجدل والمحاججة والذهاب بالتعريفات والتعليلات والتقسيمات مذاهب بعيدة أثقلت الدرس النحوي وربما خلقت حاجزاً نفسياً بين الطلبة وتلك المنظومات 0**

**ووجد في ذلك بعض المغرضين ضالتهم لمهاجمة الدرس النحوي الشامل القائم على الأصول الأولى التي وضعها العلماء وما جدَّ من بسط للقياس و تحديد للاصطلاح , فدعا الكثيرون إلى نبذ ما سموه بالمطولات وقد توهموا بأن دعواتهم تجد صداها في أروقة الجامعات . ولكن المخلصين للعربية وكتابها الأول ( القرآن الكريم ) فرَّقوا بين دعوة التيسير التي يستوجبها التعليم في المراحل الابتدائية والثانوية وما يقتضيه الدرس النحوي في الجامعات التي يتخرج فيها المتخصصون في قسم العربية وعلومها 0**

**وأثبت شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك بأنه المنهج الوافي الكافي الشافي لنقل الحصيلة المعرفية للدرس النحوي إلى الأجيال من المتخرجين في الجامعات. وإن المشكلة ليست في الشرح المذكور وإنما هي مشكلة منهجية قائمة على أساس من تتبع العرب المعرفي الذي ورد في النظم , ومن المعلوم أن الناظم يتقيد بالوزن والقافية 0**

**وقد أشار ابن هشام في شرحه الذي وضعه على الألفية وسمَّاه ( أوضح المسالك على ألفية ابن مالك ) إلى أنه قد يجد القارئ في هذا الشرح تقديماً وتأخيراً في الأبواب والفصول . وهذا أمر طبعي مرده للقيد الذي تمثله القافية ويمثله الوزن كما أشرنا , بينما الشارح حر في عرض أفكاره 0**

**ويتسم الدرس النحوي في الألفية بجرأة التناول في الفكر النحوي ممثلة بتبني ابن مالك لآراء الكوفيين ونبذه لآراء البصريين في مواضع بعينها من أبواب النحو التي عرض لها في ألفيته , وكان شافعه لدى كثير من المتعصبين للنحو البصري إنه انتقى المسائل الميسرة الأقرب إلى حياة اللغة التي وجدها عند الكوفيين , كنَّا نأمل أن يستمر هذا المنهج عند معاصريه والذين جاءوا من بعده غير أن آفة التعصب حالت دون ذلك سوى ما نجده في المناهج العراقية في الدرس النحوي في الثانوية من اعتماد لآراء المدرسة الكوفية التي تمثل اليسر والابتعاد عن العسر في هذا الدرس.**

**وقد انطلق واضعو هذه المناهج من الخطة المنهجية التي كُلف بوضعها الأستاذ الدكتور مهدي المخزومي** ( رحمه الله ونفعنا بعلمه ) **عميد كلية الآداب في جامعة بغداد آنذاك فوضعها عام 1959م ثم جاء تلميذه الأستاذ الدكتور نعمة رحيم العزاوي فأحيا ذلك المنهج وأضاف إليه من خلال وظيفته في وزارة التربية مسؤولاً عن مناهجها 0**

**ومن الأمور الأخرى التي يحرص عليها الدارس للألفية وشرحها أنها عالجت المسائل النحوية التي وردت في النصوص القرآنية سواء في رسم المصحف أو ما وافقه ولو بوجه من القراءات . وهذا الأمر مما يحرص عليه في إيصال المعرفة النحوية من الطلبة لأنه لا يجوز أن يتخرج طالب في قسم اللغة العربية وهو لا يعرف تخريـج نص قرآني من مثل قراءة ( إن هذان لساحران ) 0**

**ومن الكتب التي اعتمدت في نقل الحصيلة المعرفية النحوية للأجيال في المدارس الدينية وسواها كتاب ( شرح الرضي على الكافية ) وهو كتاب مهم اشتهر شهرة واسعة , وقد أُختُلِف في المكان الذي كتبه فيه مؤلفه , فقال بعضهم إنه كتبه في المدينة المنورة قرب مشهد النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) , ولكننا نميل إلى رأي آخر يستوحى من الشواهد التي وردت في هذا الكتاب فقد أكثر الرضي من الاستشهاد بكلام أمير المؤمنين علي ( عليه السلام ) بصورة لم يسبق إليها في كتاب من أمَّات كتب النحو ككتابه ، ولا في كتاب صغير مما يؤكد أنه اطلع على خطب أمير المؤمنين التي جمعها الشريف الرضي في كتاب سمَّاه ( نهج البلاغة ) 0وميل الرضي الاسترباذي إلى آل البيت وإكرامه الحسن والحسين ( عليهما السلام ) في استشهاداته يوضح ولاءه لهم 0**

**ومن الناحية العلمية فإن الاستشهاد بكلام أمير المؤمنين ( عليه السلام ) يؤصل الدرس النحوي بالأمثلة والشواهد الفصيحة التي تنتمي إلى عصر النقاء اللغوي في النصف الأول من القرن الأول الهجري . وقد تعمقت الدراسات التي تبحث في هذه الخطب وتوكيد صحة نسبتها إليه ( عليه السلام ) وقد تمثل ذلك في الكتاب الكبير الذي أنجزه الأستاذ عبد الزهراء الخطيب الحسيني وهو المسمى ( مصادر نهج البلاغة وأسانيده ) , فقد كشف عن هذه المصادر وتلك الأسانيد من الكتب التي أُلفت قبل عصر الشريف الرضي بكثير 0**

**وقد اتسم شرح الرضي على الكافية بالروح العلمي ودقة عبارته وبحثه عن الرأي الميسر وإفادته من التعريفات والتحديدات والتقسيمات التي أنجزها الفكر النحوي متلاقحاً مع عامة الفكر العربي الإسلامي في فقهه وأصوله وكلامه خاصة 0**

**ويلاحظ على هذا الشرح أن الرضي وإن نصَّ على بصريته في المذهب النحوي فإنه انتصر للمذهب النحوي الكوفي وآرائه ، ورجَّح الكثير منها وخاصة آراء الكسائي والفرَّاء 0 فلم يكن من المتعصبين لمذهب نحوي ينتمي إليه ولا من الذين يستعملون ملكتهم في عرض الحجج ومقارعة الحجة بالحجة انتصاراً للمذهب النحوي وإن اقتضى ذلك التأويل والتقدير الذي يبتعد عمَّا يقتضيه الدرس النحوي من نُشْدان حياة اللغة على وفق لغات العرب التي ارتضاها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف 0 ومما يتسم به شرح الرضي كذلك أنه أكثَرَ من الاستشهاد بالحديث الشريف وقد سبقه إلى ذلك جار الله الزمخشري ( ت538هـ) في مؤلفاته النحوية واللغوية 0وقد جرى تدريس هذا الكتاب في عصرنا في مؤسسات علمية عامة وخاصة وهو جدير بالاعتماد في المناهج , وعن سبب تأليف الكتاب ذكر الرضي في مقدمة كتابه هذا أنه شرح كافية ابن الحاجب في النحو تلبيةً لطلب أحد تلاميذه 0**

**ومن الأمور التي اتسم بها الدرس النحوي في عصرنا الدعوة إلى التيسير وهي تطالعنا بين الفينة والأخرى في هذا المكان أو غيره من أرض العرب والمسلمين التي تُدَرّس فيها العربية. وجذور هذه الدعوة تتمثل في أفكار ابن مضاء القرطبي التي لم تؤثر في النحاة الذين أعقبوه من مثل ابن هشام وسواه الذين استمرت مؤلفاتهم تعنى بنظرية العامل والتأويلات النحوية ولكن التُفِتَ إلى دعوته في عصرنا , وعُني بها أُناس سعوا في إحيائها وتخليص الدرس النحوي مما وجدوه ثقلاً ورهقاً ينوء به الدارسون 0 فبدأت الدعوة من الدكتور إبراهيم مصطفى في كتابه ( إحياء النحو ) الذي طُبع سنة 1947م في طبعته الأولى أي : قبل نشر تحقيق الدكتور شوقي ضيف المخطوط ( الرد على النحاة ) لابن مضاء القرطبي بسنة أو سنتين , وذكر أن الدكتور إبراهيم مصطفى كان يعلم بوجود هذه المخطوطة عند الدكتور شوقي ضيف وسعى لديه في الحصول عليها لكنه لم يفلح , وحينما نشر الدكتور شوقي ضيف هذه المخطوطة ذكر في مقدمتها أن الأفكار التي ظهرت في كتاب إحياء النحو لإبراهيم مصطفى موجودة في كتاب ابن مضاء القرطبي في كتابه الذي حققه 0 وقد أنكر الدكتور إبراهيم مصطفى ذلك لكن الذي يقرأ كتاب إحياء النحو سيجد أن الأفكار الأساسية التي انطلق منها مذكورة في كتاب ابن مضاء وإن كان ابن مضاء قد التمس أصول أفكاره من التراث النحوي الذي سبقه ، وفي مباحث الخلاف والمؤاخذات النحوية خاصة 0**